المبحث الأول

مقدمة عن تاريخ المصطلح ومفهومه

لكل مصطلح سيرته التاريخية التي هي عنوانها الفكري، ودراسة أي مصطلح لا بدّ أن يستهل بمولده الدلالي ثم تطوره عبر الاستعمال إلى دخوله في منظومة حضارية استوجبته ظروفه الفكرية زمن النشأة وتطور المفهوم إلى ما آلت اليه في نهاية صورته التي بلورتها كل تلك الاضافات الزمنية من عمر المصطلح.

◈ الأصل الدلالي:

إنّ مصطلح العلمانية مأخوذ أصلاً من كلمة (secular) ويعني فيما يعنيه اللاديني أو البعيد عن الأمور الدينية، أو الدنيوية، وبالتالي يعني أي نشاط في حياة الإنسان مجرد من السمات الدينية والتوجيه الديني، أو المنسلخ عن الدين[1].

وقد نقل هذا المفهوم عن معجم أكسفورد شرحاً لكلمة (secular) بأنها تعني: دنيوي أو مادي، ليس دينياً ولا روحياً، أو الرأي الذي يقول انه لا ينبغي أن يكون الدين أساساً للأخلاق والتربية[2]. ونقل قريباً من هذا عن دائرة المعارف البريطانية في تعريف العلمانية أنها: «حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها»[3].

---

(١) انظر: سفر الحوالي: **العلمانية**. ٢١. وعماد الدين خليل: **تهافت العلمانية**. ٣٧. ومحمد قطب: **مذاهب فكرية معاصرة**. ٤٤٦.

(٢) عبد الوهاب المسيري: **العلمانية تحت المجهر**. دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م. ٥٨.
والشيخ يوسف القرضاوي: **الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه**. مكتبة وهبة، القاهرة، ط٧، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م. ٤٣.
وسفر الحوالي: **العلمانية**. ٢٢. وأنور الجندي: **تيارات مسمومة ونظريات هدامة معاصرة**. ٥٨٩.

(٣) الشيخ يوسف القرضاوي: **الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه**. ٤٣. وسفر الحوالي: **العلمانية**. ٢٢.
وسعيد شبار: **الاصطلاحات الغربية في الفكر الإسلامي المعاصر**. مجلة المعرفة، مجلة ثقافية شهرية تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، السنة ٤٢، العدد ٤٧٥، نيسان ٢٠٠٣. ٢٣٤.

وفي دراسة أدق لدلالة اللفظة ذهبت إلى أن أصل لفظة (secular) مصطلح كنسي يعني في قوانين الكنيسة الكاثوليكية انتقال الرجل أو المرأة من الحياة المكرّسة للـــدين إلى الحياة الدنيوية؛ أي تحولهم من إكليروس[1] إلى رجال عامة غير منخرطين في كل ماله صلة بالكهنوت وقد استعار الغرب هذا المصطلح لوصف الاشخاص أو التنظيمات أو الاتجاهات المتحررة من التأثيرات الدينية والقيود الكنسية[2]. وبذلك ورغم أن العلمانية (secularism) مذهبٌ لاديني، فإن أصل الكلمة ديني كنسي[3] يتعلق بصفة يُنعت بها المنسلخ عن الشؤون الدينية في زمان ومكان معينين، «فزمنية العلمانية هي صفة لصيقة بها منذ البداية، فالكلمة

---

(١) الإكليروس: هو النظام الخاص بالكنائس النصرانية، يمثل فيه ترتيب ومسميات العاملين في الكنيسة.
انظر: الندوة العالمية للشباب الإسلامي: **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة**. المجلد الثاني، ٩٧٠.

(٢) أحمد محمود السيد: **المصطلحات السياسية/دراسة دلالية مقارنة**. ١٧١.
وعلى هذا الأساس فإنّ معنى العلمانية (secularism) لا تعني (العِلم) بحال من الأحـــوال؛ لأن العِلم هو (science) بالإنكليزية والنسبة إلى العلم هو (scientific) .. انظر إلى تفصيل ذلـــك: محمد بن عبد العزيز السديس: **أثر العلمانية في التربية والتعليم في العالم الإســـلامي**. رســـالة ماجستير، إشراف: الدكتور بشير حاج التوم. جامعة أم القرى/كلية التربية، مكة المكرمة. ٥.
يقول د. محمد عمارة في اثبات تاريخي مهم لمصطلح العلمانية:
"وأول من أدخل هذه الكلمة -وكتبها هكذا: عالماني- وعالمانية- نسبة إلى العالَم كمقابـــل لله والدين والمقدس -هو أحد المترجمين عن الفرنسية- إلياس بقطر المصري- والذي عمل مترجمـــاً للحملة الفرنسية على مصر -(١٧٩٨-١٨٠١)- والذي رحل إلى فرنسا، حيث عمل مدرساً للعربية العامية في مدرسة اللغات الحية بباريس-كان إلياس بقطر هو اول من ترجم هذا المصطلح عن الفرنسية، عندما ترجم المعجم الفرنسي إلى العربية سنة ١٨٢٨" انظر: محمد عمارة: **الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين**. ٩.

(٣) انظر في تفصيل هذه المسألة إلى: عدنان الخطيب: **قصة دخول (العلمانية) في المعجم العـــربي**. ملحق ضمن كتاب (جذور العلمانية) للدكتور السيد أحمد فرج. دار الوفاء، المنـــصورة، ط٥، ١٤١٣هـــ/١٩٩٣م. ١٥١ وما بعدها.

المستخدمة في اللغات الأوروبية (seculum) التي تعني (العصر) أو (الجيل) أو (القرن) وفي لاتينية العصورة الوسطى تعني (العالم) أو (الدنيا)»[1].

«ويزداد نطاق مصطلح (العلمانية) اتساعاً في التعريفات التي توردها المعاجم الأوروبية، إلى أن تنتقل التعريفات تماماً من الدائرة الجزئية الصغيرة إلى الدائرة الشاملة الأوسع، التي تنطوي على رؤية شاملة للكون، يتفرع عنها منظومات قيمية ومعرفية، فالعلمنة هي صبغ الفنون والدراسات بصبغة علمانية غير مقدسة، ووضع الأخلاق على أسس نفعية متجاوزة للأخلاق»[2].

---

(١) عبد الوهاب المسيري: **العلمانية تحت المجهر**. ٥٨.

يقول الدكتور المسيري: "يصر إرفنج كريستول المثقف الأمريكي اليهودي على وصف العلمنة بأنها رؤية دينية حققت انتصاراً على كل من اليهودية والمسيحية، وهو يصر على تسميتها (رؤية دينية)؛ لأنها تحتوي على مقولات عن وضع الإنسان في الكون وعن مستقبله لا يمكن تسميتها علمية، ذلك لأنها مقولات ميتافيزيقية لاهوتية وفي هذا الدين (العلماني)، يصنع الإنسان نفسه أو يخلقها (تأليه الإنسان)... ذلك أن المقدرة على الخلق، التي كانت من صفات الإله، أصبحت في المنظومة الدينية العلمانية من صفات الإنسان، ومن هنا ظهر فكرة التقدم، وهذه العقيدة العلمانية هي الإطار المرجعي لكل من الليبرالية والاشتراكية". انظر: عبد الوهاب المسيري: العلمانية تحت المجهر. ٢٤٤.

(٢) عبد الوهاب المسيري: **العلمانية تحت المجهر**، ٥٩. وانظر: إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي: **مصطلحات عصر العولمة**. ١٣٢.

وغي هرميه وزملاؤه: **معجم علم السياسة والمؤسسات السياسة**. ترجمة: هيثم اللمع. المؤسسة الجامعية للدراسات، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م. ٢٠٣

وانظر:

IAIN McLEAN AND ALISTAR McMILAN, CONCISE DICTINAREY OF POLITICS.OXFORD UNIVERSITY PRESS, NEWYORK,SECONDEDITION, 2003, PAGE481.

◈ تفسيرات تاريخية لظهور العلمانية في أوروبا[1]

لا ريب أن العلمانية كنظام للحياة ظهر في أوروبا ونشأ فيها وترعرع ونما أصوله وقيمه في الغرب حين كان يرزح تحت سلطتين: السلطة الإكليروسية الدينية ويمثلها البابا[2] ورجال الكنيسة وسلطة دنيوية يمثلها الملك ورجال الدولة.

وعلى الرغم من تدين الغرب بالديانة النصرانية فإنها لم تعرف قط دين الله المترل على حقيقته الربانية. إنما عرفت صورة محرفة من صنع الكنيسة الأوروبية لا صلة لها بالأصل المترل، الذي أرسل المسيح عليه السلام ليبلغه لبني إسرائيل قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: ٤٩].

فالجماهير الأوروبية ظلت تستقي دينها من رجال الدين من البابوات والكرادلة، ومن المجامع المقدسة وشراح الأناجيل المحرفة، وتعتبرهم مرجعاً لا يرقى إليه الشك ولا يجوز أن يناقش! فاتخذوهم - على الحقيقة لا على المجاز- أرباباً من دون الله ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[التوبة: ٣١][3].

---

(١) هناك تفسيرات لا مبررات لظهور العلمانية في أوروربا؛ لأن المبررات تحتاج إلى حجج وبراهين، وظهور العلمانية ليس له أي حجج ولابراهين لتأسيسها.

(٢) هو الرئيس الأول في الديانة النصرانية الكاثوليكية، وهو أسقف روما المقيم في الفاتيكان، ويعتبر هو خليفة بطرس القديس لدى النصارى الذي يعتبر الصخرة التي تبنى عليها. والبابا هو رأس جماعة الأساقفة ونائب المسيح على الأرض، وهو معصوم عن الخطأ في إعلان العقيدة الكنسية وشرحها. وهذا كله في نظر أتباع الديانة النصرانية. انظر إلى:
أحمد راتب عرموش وآخرون: **موسوعة الأديان**. دار النفائس، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م. ١٢٤.
والندوة العالمية للشباب الإسلامي: **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة**. المجلد الثاني، ٩٨١.

(٣) محمد قطب: **مذاهب فكرية معاصرة**. ٩ و٤٤٨ وما بعدها.
وانظر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: **كواشف زيوف في المذاهب المعاصرة**. ٢٣.

ولم تستطع الكنيسة أن تكون مرجعاً لتصحيح التحريف والتشويه الذي أصاب الدين، حين اتخذت عقيدة التثليث[1] وأضرابها المقومات الأساسية لتوجهاتها فانحرفت عن الجادة والهدف من إرسال الرسل في محاربة الوثنية، بل بالعكس لم تستطع الكنيسة بتصوراتها الفاسدة أن تقتلع جذور الوثنية المتغلغلة في أعماق النفس الرومانية، ولا أن تسمو بتلك النفوس من عالم الملذات الجسدية إلى عالم الفضيلة والطهر[2].

وإذا عجزت الكنيسة في توطيد عقيدة التوحيد في قلوب الناس، وتحريفها إلى تثليث، فمن الطبيعي أن تعجز عن إقامة الحياة: بنظمها وقيمها وأخلاقها على أساس الدين، وبقي الدين كهواية شخصية محدودة التأثير. ومثل هذه العقيدة لا تتحمل أعباء التشريع وتنظيم أمور الدولة لهشاشتها وتهافتها، فكانت قرارات (مجمع نيقية)[3] تتويجاً لذلك الانحراف

---

(١) عقيدة نصرانية ملخصها "أن الله واحد في ثلاثة أقانيم؛ هم الأب (وهو الله) والابن (وهو الله) والروح القدس (وهو الله) وهؤلاء هم الله، وهو سر الثالوث الأقدس" ومما سبق الغموض واللبس واضحٌ في هذه العقيدة المنحرفة عن التوحيد الصحيح. وقد أقرّت هذه العقيدة في مجمع نيقية اللاحق الذكر. انظر: وافي، د.علي عبد الواحد: الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام. دار نهضة مصر، القاهرة، ط ٨، ٢٠٠٩م، ١٢٠ وما بعدها. وأحمد شلبي: **مقارنة الأديان (المسيحية)**. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١٠، ١٩٩٨م، ١٣٢ وما بعدها. ومصطفى حلمي: **الإسلام والأديان دراسة مقارنة**. دار ابن الجوزي، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. ٢٤١.

(٢) ولا غرابة في ذلك حين نعلم أن هذه العقيدة لها صلة بعبادة الأبطال، تلك العبادة التي بدأت منذ فجر التاريخ.. ومرجع ذلك أن الجماهير كانت تعبد البطل لعمل رائع قام به، ثم يتخذ البطل له زوجة فتحتل معه مكان الألوهية، وتسجد لهما الجماهير، وينجب الزوجان، ثم يعيّن البطل أحد أبنائه ليتولى مكانه فيما بعد فتسجد له الجماهير أيضاً ويتم ذلك الثالوث !! انظر: أحمد شلبي: **مقارنة الأديان (المسيحية)**. ١٣٥. والشيخ محمد أبو زهرة: **محاضرات في النصرانية**. الرئاسة العامة للإدارات والبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد. الرياض، الطبعة ١٤٠٤هـ. ٤١.

(٣) وهو مجمع مسكوني عقد في مدينة (نيقية) سنة ٣٢٥ميلادية بأمر قسطنطين إمبراطور الرومان، للبتّ في الخلاف الحاصل بين المسيحيين حول عقيدتي التوحيد والتثليث، والذي ضم ممثلين=

العقيدي ومن ثم المنهجي في الفكر الغربي الذي أصّل لفكرة فصل العقيدة عن الشريعة، وفصل الدين عن الدولة، وتقسيم الحياة البشرية إلى دائرتين مغلقتين:

الأولى: (دينية) من اختصاص الله ويقتصر محتواها على نظام الإكليروسي والرهبنة والمواعظ وتشريعات طفيفة لا تتعدى الأحوال الشخصية.

الثانية: (دنيوية) من اختصاص قيصر وقانونه، ويحوي محيطها التنظيمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلاقات الدولية ونظم الحياة العامة[1].

وعلى هذا الأساس لم تجد الكنيسة غضاضة في تبني هذه الفكرة تهرباً منها على ما يبدو من تحمل أعباء تعرف أن لا عقيدتها المحرفة ولا منهجها القاصر تتحمل ذلك، وبخاصة أنها بررت لذلك بمبررات محرفة واهية ونسبته فيما حرفته في الإنجيل إلى المسيح عيسى (عليه السلام) من مثل القول المنسوب للمسيح «أعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله»[2].

=لجميع الكنائس في العالم المسيحي للفصل في الخلاف وتقرير مبدأ صحيح يعتنقه المسيحيون فيما يتعلق بألوهية المسيح. فانتهوا بعد خلافات حادّة بين المجتمعين إلى إقرار عقيدة التثليث وتكفير مخالفيها وكل من ذهب إلى أن المسيح إنسان، وتحريق جميع الكتب التي لا تقول بألوهية المسيح وتحريم قراءتها. انظر: علي عبد الواحد وافي: **الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام**. ١٢٥ وما بعدها. والشيخ محمد أبو زهرة: **محاضرات في النصرانية**. ١٤٩.

(١) محمد البهي: **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي**. ١٩٢. والشيخ محمد أبو زهرة: **محاضرات في النصرانية**. ١٥٣. وعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: **كواشف زيوف**. ٣٢.

(٢) محمد كريم البهادلي: **العلمانية**. صحيفة التآخي، أربيل - العراق، العدد ٤٥٨٢، الثلاثاء ٢٠٠٥/٩/٢٠م. الثالثة.

وانظر: سفر الحوالي: **العلمانية**. ٦٥.

يقول الشيخ القرضاوي معلقاً على هذه العبارة: "ويسند هذا من تاريخ الفكر الغربي، أنه لم يعرف الله، الذي نعرفه نحن المسلمين، محيطاً بكل شيء، مبرراً لكل أمر، لا تخفى عليه خافية،.. إنما إله الفكر الغربي إله آخر، مثل إله (أرسطو)، الذي لا يعلم شيئاً غير ذاته، ولا يدري عما في الكون شيئاً، ولا يدبر فيه أمراً، ولا يحرك ساكناً.." انظر: الشيخ يوسف القرضاوي: **الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه**. ٤٧.

ومن ثم ارتكز الفكر الغربي على هذه الأسس لتحديد معنى (الدين) و(الدولة) وهو مأخوذٌ من واقع الصلة بين المسيحية والحكومة في نظر الغربيين أنفسهم، تلك الصلة التي تأثرت بعوامل مختلفة، وتبلورت أخيراً فيما يسمى الآن بـ(الكنيسة) و(الدولة) أو بتمايز (السلطتين)!

إن إضعاف الجانب الإيماني العقدي للمسيحية وهدم سمات عقيدة التوحيد، بتبني عقيدة التثليث يرجع إلى أثر الفلسفة الإغريقية في تفلسف المسيحية[1].

◈ الطغيان الكنسي:

إن الفصل بين ما هو ديني وما هو دنيوي، واختصاص الكنيسة بالأمور الدينية واختصاص القيصر بالأمور الدنيوي، لم يكن لها مردود سلبي على الكنيسة كما يتصور لأول وهلة؛ لأن الهجمة كانت ضد الدين وليس ضد رجال الكنيسة، فكأنما كان مجمع (نيقية) صفقة لتقسيم السلطات، فمارست الكنيسة طغياناً باسم الدين متحالفة مع القيصر الذي مارس هو أيضاً طغياناً سياسياً، والكنيسة تغطي الملك أو القيصر بقداسة الحق الإلهي في الحكم، وبالمقابل يحمي الملك أو القيصر الكنيسة الذي يستمد منه ذلك الحق الإلهي، وكانت الضحية هي الدين الحق الذي ضاع مع تقاطع المصالح بين الكنيسة ورجال الحكم.

---

(١) محمد البهي: **الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي**. مكتبة وهبة، القاهرة، ط٦، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م. ٨١.

ويشير الكاتب (برنارد لويس) إلى حقيقة أن لا فصل بين الدين والدولة في الإسلام على عكس النصرانية فيقول:

"ولم تكن في الإسلام الكلاسيكي حدود فاصلة بين المسجد والدولة، أما في المسيحية فيرجع وجود السلطتين إلى المؤسس الذي أوصى بأن يعطى ما لقيصر لقيصر وما لله.. وفي الإسلام -قبل أن يتغرب- لم تكن هناك سلطتان بل وجدت سلطة واحدة ومن ثم لم يكن من الممكن أن تظهر مسألة الفصل أو الحد الفاصل بين المؤسسة الدينية والدولة الضارب بجذوره إلى هذا الحد في المسيحية، لم يوجد هذا في الإسلام..".

انظر: برنارد لويس: **لغة السياسة في الإسلام**. ترجمة: د: إبراهيم شتا. دار قرطبة للنشر والتوثيق والأبحاث، د.م، الطبعة العربية الأولى، ١٩٩٣م، ١١.

فادّعت الكنيسة لنفسها سمات مستمدة من الدين نفسه -كما ادعت من غير برهان- ، «وكان من الأسس الباطلة التي بنى عليها رجال الدين مبررات وجودهم مبدأ (التوسط بين الله والخلق) الذي يقتضي ألا يذهب الإنسان إلى رجل الدين ليعلمه كيف يعبد الله، بل ليعبد الله بواسطته، وليس للمذنب أن يتجه بتوبته إلى الله طالباً الصفح والمغفرة، بل عليه أن يتجه إلى رجل الدين معترفاً أمامه بذنبه ليقوم بالتوسط لدى الله فيغفر له..»[1]. وقد ترتب على هذا آثار سيئة منها احتكار حق قراءة وتفسير الإنجيل، ثم مهزلة صكوك الغفران[2] وبروز الكنيسة ورجالها كقوة اقتصادية واجتماعية وسياسية لها نفوذ، تبارك للملك الذي يحمي مصالحها وأطيانها، حتى لو كان ذلك على حساب الفقراء والفلاحين، مساندة الإقطاع ورجال السلطة، وهذا بعد أن عززت الكنيسة سلطاتها الدينية الطاغية بادعاء حقوق لا يملكها إلا الله، مثل حق الغفران وحق الحرمان وحق التحلة[3].

◈ الكنيسة والعلم والفلسفة:

وأدّى تمادي الكنيسة إلى ظهور نوع من البطش والتنكيل بالمخالفين ما لبث أن تحول إلى أقسى أنواع الترهيب والتعذيب، ذلك ما سُمّيَ بـ(محاكم التفتيش)[4]، وذلك بدءاً من محاربتها لمخالفي عقيدة التثليث، ومن ثم محاربة من يتخذ مصدراً آخر غير الكنيسة للمعرفة، فحاربت علماء الطبيعة فيما سمي بصراع العلم والدين!!، فكانت

---

(١) سفر الحوالي: **العلمانية**. ٨٠. وانظر: أحمد شلبي: **مقارنة الأديان (المسيحية)**. ٢٦٧.

(٢) سفر الحوالي: **العلمانية**. ١١٠ و١٨٠. ومحمد قطب: **مذاهب فكرية معاصرة**. ٦٣ وما بعدها. وأحمد شلبي: **مقارنة الأديان (المسيحية)**. ٢٥٥. والشيخ محمد أبو زهرة: **محاضرات في النصرانية**. ١٥٥.

(٣) وحيث ادعت الكنيسة لنفسها سلطة زمنية مسلطة على أرواح البشر وعقولهم وأجسادهم.. فأصبحت الكنيسة، مهبط الرحمة والتواد والتعاطف، غولاً بشعاً يطارد الأفراد في يقظتهم ومنامهم. انظر: محمد قطب: **الإنسان بين المادية والإسلام**. دار الشروق، القاهرة، ط٦، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م. ١٥.

(٤) سفر الحوالي: **العلمانية**. ١٣١. والشيخ محمد أبو زهرة: **محاضرات في النصرانية**. ٢٠٤.

الحرب بينهم سجالاً، فـ«المواقع التي احتلها العلم من مناطق الدين هي في الحقيقة التي انتصر فيها العقل واليقين على الخرافة والوهم، كما أن المواقع التي صمد فيها الدين أمام الهجوم العلمي الكاسح هي المواقع التي انتصرت فيها الحقيقة الموحاة على التخرصات والأهواء، وحينئذٍ نستطيع أن نقول مطمئنين: إن الحق في كل من الطرفين هو الذي انتصر، أو سينتصر، على الباطل في كليهما، وانه لو كان الدين الأوروبي حقاً خالصاً والعلم الأوروبي يقيناً مجرداً لما حدثت معركة على الإطلاق..، وبما أن الدين بصبغته الإلهية النقية لم يدخل المعركة، فإن الأوفق أن نسمي ما حدث في الغرب صراعاً بين الكنيسة والعلم، وليس بين العلم والدين»[1]. وبالتالي كان من الطبيعي ظهور تمرد ومن ثم ثورة العلماء ودعاة التجديد مطالبين بتقديس العقل واستقلاله بالمعرفة بعيداً عن الوحي، ما دام الوحي (الكنيسة) لا تعترف بالواقع العلمي، «ولم تكن الكنيسة من سعة الأفق على جانب يسمح لها بتفهم عدم المنافاة بين نسبة الأفعال إلى الله تعالى باعتباره الفاعل الحقيقي وبين نسبتها إلى الأسباب باعتبارها وسائط مباشرة، بل كان حنقها على كل جديد صارفاً لها عن ذلك، كما ان أصحاب النظرية اندفعوا وراء ردّ الفعل الأهوج فانكروا عمل العناية الإلهية وربط الأسباب بالمسببات معتقدين أن كل ما عرفت علته المباشرة فلا داعي لافتراض تدخل الله فيه»[2]، وعلى هذا الأساس وبتأثيرات وإيحاءات الفلسفية لنظريات علمية (مثل نظريات نيوتن وغيره) أسهمت في إيجاد فكر لا ديني منظم ينتهج طرائق محددة في التعامل المعرفي، «حتى ظهرت فلسفات متنوعة يدور محورها حول كلمتين: هما في الواقع صنمان استحدثهما الهاربون من نير الكنيسة ليحلا محل إلههما المخيف !! وهما (العقل) و(الطبيعة)، وتعالت أصوات الباحثين والفلاسفة منادية بأن العقل هو الحكم الوحيد والعقل هو كل شيء وما عداه فوهمٌ وخرافة!»[3] فظهرت فلسفات تنظّر لمثل

---

(١) سفر الحوالي: **العلمانية**. ١٤٦. وانظر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: **كواشف زيوف**. ٤٢ وما بعدها. ومحمد البهي: **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي**. ٢٤٣.

(٢) سفر الحوالي: **العلمانية**. ١٥٥. وانظر: محمد قطب: **مذاهب فكرية معاصرة**. ٤٧.

(٣) سفر الحوالي: **العلمانية**. ١٥٩.

هذه الرؤية، وادعت هذه الفلسفات العلمية في حيثياتها ونتائجها معتمدة على المادية كأبرز ملامح الرؤية العلمية في ذلك الوقت، ورغم التوحد الحاصل بين الفلسفة والعلم ضد الدين (الكنيسة في أوروبا)، إلا أن اللافت أن هؤلاء لم يلحظوا أو لم يريدوا أن يلحظوا الفوارق العميقة بين العلم والفلسفة[1]، «ذلك أن الخطأ والخلط إنما يجيء نتيجة تبني الفلسفات لبعض مؤثرات العلم أو نظرياته ونقلها من مجال العلم التجريبي أو من مجال الدراسات البيولوجية ودراسات الطبيعة إلى مجال المفاهيم الإنسانية وقضايا النفس والاجتماع والأخلاق. بينما لا تصلح أساليب العلم التجريبي في التطبيق على شؤون الإنسانيات من نفس واجتماع وأخلاق[2]. فالعلم طاقة، والدين منهج؛ ولذلك فليس هناك تعارض بينهما، بل تكامل وتكاتف[3]. وهذا ما أخطأت العلمانية فيه، حين ادعت أنها اتخذت نهج

---

(١) أهم الفوارق بين العلم والفلسفة هي:

العلم	الفلسفة
أ- العلم هو ما يجري داخل المعامل.	أ- الفلسفة هي ما يقوله أصحاب الإيديولوجيات.
ب- العلم واقعٌ على حساب وتجربة.	ب- الفلسفة هي عقل نافذ، وفرضية رأي يخطيء ويصيب.
ج- العلم حقائق قابلة للنقض والتغيير.	ج- الفلسفات هي نظريات تخضع لظروف ومواصفات وتحديات في العصر والبيئة.
د- العلم تراث إنساني مشترك بين سائر البشر.	د- الفلسفة لها صفة الخاصية والذاتية، بمعنى أن كل فكر فلسفة ولكل أمة نظرياتها المنبثقة من قيمها الأساسية، ودينها وتاريخها وتشكلها النفسي وذاتيتها الخاصة وروحها ووجدانها ومزاجها، وهي من أجل هذا غير قابلة للتصدير والاستيراد.

انظر: أنور الجندي: **سقوط العلمانية**. ٦٣. وأنور الجندي: **مَعْلَمَة الإسلام**. المجموعة الرابعة. ٣٥١. وعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: **كواشف زيوف**. ٦٩.

(٢) أنور الجندي: **مَعْلَمَة الإسلام**. المجموعة الرابعة، ٣٥١.

(٣) أنور الجندي: **سقوط العلمانية**. ١٨٣.

العلم التجريبي، رغم أنها نهجت الفلسفة لتحديد رؤاها، فالعلمانية ليست من نتاج العلم، ولكنها من نتاج الفلسفة، ولكي نفهم تيارات الفكر الغربي على وجه الصحيح، فعلينا أن نكشف عن الفوارق العميقة بين العلم والفلسفة (كما تمت الإشارة إليها)»[1]. «وفي الحق أن العلم لم يسقط لأنه في خطواته يدل على الله، ويلتمس طريق التجربة، ويعترف الآن بأن مهمته هي تفسير ظواهر الأشياء. ولكنّ الفلسفة العلمانية هي التي حملت منتجات العلم إلى مجال الخطر ودفعت البشرية بمفاهيم المادية إلى الأزمة، وأكبر المخاطر هو محاولة العلمانية، إقامة منهج المعرفة الإنساني، ومنهج الحياة البشرية على أساس المادية، وعزله عن الدين والخلق»[2]، فالطغيان الكنسي العقيدي والمالي والعلمي والسياسي، كان محور معارضة المفكرين والدارسين في إيجاد بديل عن هذا التوجه الكنسي الطاغي، لكن المشكلة الكبرى واجهت هؤلاء حين لم يكن في أوروبا مرجع لتصحيح التحريف والتشويه الذي أصاب الدين، وعدم التفطن إلى البحث عن دين جديد بدل الدين المحرّف الذي عرفوه، بمعنى أن أوروبا حين نبذت دين الكنيسة الفاسد الطاغي لم تبحث عن الدين الصحيح، الذي يصدق الحقائق، ويبطل الأباطيل[3]. وبدل نبذ البدع وتصحيح المسار[4]، قامت

---

(١) المصدر نفسه. ٦٣. حيث يقول الأستاذ أنور الجندي: "ليس بين الدين والعلم خصومة بحال، فليس من مباحث العلم اثبات وجود الله، ولا اثبات نبوة الأنبياء؛ لأنهما ليسا مما ينال بالتجربة، أو يقع تحت الاختبار، إذن ليس بين الدين والعلم خلاف، ولكن الخلاف بين العلم والفلسفة التي هي فروض ذهنٍ ما. إن الخطأ الحقيقي هو في التوسع في إطلاق لفظ العلم على آراء الفلاسفة". وانظر كذلك إلى: أحمد إدريس الطعّان: **مآل الإسلام في القراءات العلمانية**. مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، تصدره مجلس النشر العلمي/ جامعة الكويت، العدد ٦٥، السنة ٢١، جمادى١، ١٤٢٧هـ/ يونيو ٢٠٠٦م. ٥٠.

(٢) أنور الجندي: **سقوط العلمانية**. ١٦٩. ويضيف قائلاً: "أن القول بأن العلم سدّد إلى الدين ضربات متلاحقة، وجعله يتراجع أمامه، هذا غير صحيح على إطلاقه. ذلك أن العلم لم يواجه الدين وإنما واجه تفسيرات الدين" انظر: المصدر نفسه، ١٨١ و٩٧.

(٣) محمد قطب: **مذاهب فكرية معاصرة**. ٤٤٦ وما بعدها. ومحمد بن عبد العزيز السديس: **أثر العلمانية في التربية والتعليم**. ٥.

(٤) مثلما حصل في الإسلام، حين حدّد العلماء الأئمة ضوابط لمحاربة البدع وضلالات أهل=

النهضة في أوروبا على أسس معادية للدين من أول لحظة وقامت على أصول (بشرية) بدلاً من الأصول الدينية أو الإلهية كما كانت تصورها لهم الكنيسة؛ لأن ما صورته الكنيسة لم يكن هو الدين المترل من عند الله، ولم يكن صالحاً للحياة، فكان لا بد من نبذه والانسلاخ منه لكي تسير دفة الحياة في خطها الصحيح!!، فكان في الوقت نفسه اتجاه الفكر المنسلخ من الدين إلى البحث عن مصدر آخر للقيم الإنسانية غير الدين[1]، فاعتمدوا العقل ميزاناً للحكم على الأشياء بعيداً عن أي مصادر أخرى للمعرفة كالوحي والتاريخ والنفس الإنسانية والكون[2]، «فالمنهج العلماني قاصرٌ قصوراً شديداً؛ لأنه يقف عند

=الأهواء، فكانت كلما تظهر فرقة مبتدعة حُصِّن الإسلام منها بتأصيل مبادئ الإسلام من خلال القرآن والسنة، وظهر من يجدد من أمر الإسلام ويحمي عرضه، أمثال الإمام أحمد ضد المتكلمين بخلق القرآن، والإمام الغزالي ضد الفلاسفة والباطنية، وشيخ الإسلام ابن تيمية ضد الملاحدة والفلاسفة والباطنيين، ولا يزال يتصدى العلماء للفرق المبتدعة في أفكارها في عصرنا الحديث العصرانيين والتنويريين وأصحاب "القراءات التجديدية" للقرآن الكريم!!

(١) محمد قطب: **مذاهب فكرية معاصرة**. ٤٥٦. وسفر الحوالي: **العلمانية**. ١٧٠.

يقول الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي: "إنّ تاريخ الكنيسة نفسه مع العلم والفكر والحرية، تاريخ مخوف، فقد وقفت الكنيسة مع الجهل ضد العلم، ومع الخرافة ضد الفكر، ومع الاستبداد ضد الحرية ومع الملوك والإقطاعيين ضد الشعب، حتى ثارت الجماهير عليها، وتحرروا من الحكم المباشر لرجالها، واعتبروا عزل الدين عن الدولة، كسباً للشعوب ضد جلاديها. تاريخ الكنيسة في ذهن الانسان الغربي المسيحي، يعني الاضطهاد والقتل ومحاكم التفتيش، والمذابح المستمرة بين الطوائف المتنازعة بعضها وبعض، وعودة السلطة إليها، تعني عودة المآسي، فلا غرو أن ينفر الإنسان الغربي منها، ويقف في سبيل حكمها وتسلطها". انظر: الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي: **الاسلام والعلمانية وجهاً لوجه**. ٥٠.

ومحمد قطب: **العلمانيون والإسلام**. دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م. ١٥ وما بعدها.

(٢) فالوحي أسمى المصادر؛ لأنه صادر من خالق الأشياء كلها العارف بأسرارها، والتاريخ الذي يكشف سنن الله في الكون وقوانين الحركة للحضارات والأمم، والنفس الإنسانية في تكامله وهكذا. انظر: أنور الجندي: **سقوط العلمانية**. ٧٠. ومحمد قطب: **العلمانيون والإسلام**. ٧١.

المادية وهي ليست كل ما في الحياة..، ولأنه يقف عند العقل وحده، والعقل أداة عظيمة لا شك في مكانتها ولكنها محدودة العطاء؛ لأنها ذات وظيفة محـــدودة ككـــل وظـــائف الأعضاء وهي لا تستطيع أن تدعي القداسة..؛ لأنها أعجز ما تكـــون خـــارج ميـــدان وظيفتها..، وحيث لا يستطيع العلم أن يكون منهجاً للحياة؛ لأنه بذلك يتجاوز مهمته، فإن العقل كذلك لا يستطيع أن يكون الوسيلة الوحيدة للمعرفة الإنسانية»[1]. في حين أن «منهج الإسلام في المعرفة منهج متكامل، ليس عقلياً خالصاً، وليس روحاً خالصاً، ولكنه منهج جامع فريد متكامل، يعطي للعقل طريقه ومنطلقه في الآفاق التي يستطيع الجري فيها والتحرك داخلها، وخاصة في مجال العلم والتجربة والانطلاق في آفاق الأرض بالبحـــث والكشف. ثم يغطي المناطق الأخرى التي لا تستطيع التجربة، أو العقل أو الحس اقتحامها والوصول إليها. وخاصة فيما يتعلق بالكون والحياة والوجود والنفس الإنسانية. فيطبـــق فيها منهج الوحي الذي قدّمته الأديان إلى البشرية. واستكمل نموذجه الأوفى في القـــرآن، عقيدةً وشريعةً وسلوكاً..»[2].

إذن فـــ«المنهج الذي آثره هؤلاء المفكرون ضد الكنيسة، منهجٌ عجز عن الفصل بين الطبيعيات والإنسانيات، و لم يقدر عمق الفوارق بينهما حتى يكون للعقل مجاله في الطبيعيات للعمل الجاد فيها، وللوحي وعالم الغيب مجاله في الإنسانيات للعمل فيها»[3].

---

(١) أنور الجندي: **سقوط العلمانية**. ٧١. "وقد أعلت المادية من شأن العقل حتى وضعته بالقداسة، والعقل في حقيقة واحدة من معطيات كثيرة للإنسان، منها الإرادة والعاطفة والروح والـــنفس والقلب.." انظر: ٧٦ من نفس المصدر السابق.

(٢) أنور الجندي: **سقوط العلمانية**. ٤٠. ويضيف الأستاذ الجندي:

"وقد أجمع العلماء على أن مهمة العلم ما تزال قاصرة على وصف ظواهر الأشياء، وتقريرهـــا لا تعليلها. والعلم بإقرار جميع الباحثين: لا يقر شيئاً، وإنما يربط وينـــسق ويلاحـــظ ملاحظـــة منهجية. وبالتالي يصف ويقرر، وليس هذا فهماً للأشياء، ولكنه تعرف عليها..".

(٣) فاندسّتْ بمكر هؤلاء الأفكار والآراء والمذاهب المضللة المفسدة في العلوم والفنون التالية:

١ - علم النفس. ٢ - علم الاجتماع. ٣ - علم الاقتصاد. ٤ - علم السياسة. ٥ - علم القانون. ٦ - التاريخ وفلسفته وتحليلاته. ٧ - الأدب ونظرياته. ٨ - الفنون الجمالية. =

ثم إذا كان للعقل ذلك الدور المطلق في تسيير الأمور وإضفاء تلك القداسة عليه فبعقل من نعمل ونسترشد الطريق؟ وبأي عقل نشرع؟ وخاصة إذا علمنا أن العقل لا يستطيع أن يكشف سر الخلق، أو أن يضع مبادئ المعرفة فضلاً عن انه ليس هناك عقل مطلق مجرد من البغض والشهوة[1]. «وإذا كان من عجيب صنع الله للإنسان أن وهبه العقل الذي استفتح به كنوز العلم، فأعجب من ذلك أن تفضل سبحانه، فأنزل له الدين ليقيه ما لا يمكن للعقل والعلم أن يكفياه إياه من الشرور والأخطار»[2].

=انظر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: **كواشف زيوف**. ٧٧.
يقول الدكتور عماد الدين خليل: "إنّ الطبيعة -هكذا يعلمنا القرآن- ليست المصير الأول والأخير الذي يؤول إليه نشاط الإنسان وكدحه في الأرض، ذلك أن طبيعة الإنسان، وتكوينه الذاتي، ودوره الحضاري في الأرض لا تحقق تكاملها وأهدافها إلا باعتماد القيم الثلاث: العقيدة، الطبيعة، القيم والأعراف الإنسانية.. ولا يرتبط مصير الإنسان بقيمة واحدة من هذه القيم، بل هي جميعاً تتناسق وتتكامل وتنسجم لتشكل أخيراً مصيره المتفرد الموحد.. فالإنسان المسلم يسهم-في كافة فعالياته وفي مختلف أوجه نشاطه-في تشكيل مصيره الخالد.. عندما يسجد لله.. عندما يستقريء الطبيعة والتاريخ.. عندما يتفكر في خلق السموات والأرض.." انظر: خليل، عماد الدين: **تهافت العلمانية**. ٩٥ وما بعدها.

(١) أنور الجندي: **سقوط العلمانية**. ٧٨. وانظر: منير شفيق: **الفكر الإسلامي المعاصر والتحديات**. ٤٢.

(٢) أنور الجندي: **سقوط العلمانية**. ١٦٢. وفي هذا المجال لا أستطيع ترك هذا المقام بدون أن أورد نص جميل للأديب توفيق الحكيم حيث يقول: "فالذكاء ليس المزية التي اختص بها الإنسان وحده، والنظام الإداري المحكم أو الاقتصادي الكامل ليس وقفاً على المجتمع البشري، فإن مجتمع النحل لأدق منا نظاماً في الإدارة، وإن مجتمع النمل لأتمّ منا إحكاماً في الاقتصاد!.. ولكن الذي يميزنا -نحن معاشر البشر- هو (الإيمان)!.. ما من مجتمع غير مجتمعنا البشري اهتدى إلى ذلك الإيمان الديني، لأن حياة الروح لم يلج بعد بابها غير الإنسان!..". انظر: توفيق الحكيم: **تحت شمس الفكر**. دار مصر للطباعة، القاهرة، د.ط، د.س، ٤٠.

◈ الروح والجسد

إنّ الصراع الذي نشب بين الكنيسة والتيار (التنويري!) الجديد، كان صراعاً قوياً سحب على الكثير من مجالات الفكر الإنساني، ومنها التنازع بين الروح والجسد، فبما أنّ الكنيسة ادعت الروحانية في توجيه الإنسان وتهذيب النفس كان التيار المقابل على (الضد!) حين اهتمّ بالجسد ومتطلباته في الحياة، أو الطبيعة الخارجية والداخلية، «إنّ المبادئ الوضعية العلمانية لا تؤكد على (دور الإنسان) ولا على (عملية التغيير الباطني) أو (الجهاد الأكبر) بتعبير الرسول (ﷺ)، في طريقها إلى إقامة الدولة والحضارة، وفي مرحلة قيامها.. انها تؤكد على (الخارج) أو (المحيط) فحسب، وهذا يعرضها، بلا شك إلى الكثير الكثير من الانحرافات والتخبط والتأخر في الوصول إلى الأهداف، وسرعة النكول عنها.. أما الإسلام فإنه يقرر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وثم يجيء التغييرالخارجي، وإقامة المؤسسات السياسية والعسكرية والاجتماعية.. فاتحاً على أساس عميق من (تغيير) و(بناء) مسبقين يشملان كل طاقات الإنسان وقدراته وتصوراته وسلوكه..»[1]. فالرهبنة الكنيسية كانت أحد أسباب نبذ الروحية في علمنة الإنسان الغربي؛ لأنهم أرادوها ضد كلّ ما تتبنّاه الكنيسة، فاهتموا بالخارج الجسدي على حساب الداخل الروحي، فمارست الانحرافات التالية نتيجة لذلك:

١ - أنها وضعت الحواجز المقفلة بين عالمي الروح والمادة، ولا يملك الإنسان في كيانه حواجز كهذه تفصل عقله عن روحه عن جسده.

٢ - أنها لا تنظر إلى القيم الروحية نظرة إيجابية، فهي إذ تعتبرها قيماً سالبة، لا تشركها في التخطيطات والنشاطات ذات الطابع الجماعي.

٣ - وهي إذ تقوم بتخطيط الأنظمة والقوانين التي تنظم العلاقات الاجتماعية مجردة عن القيم الروحية، تحكم على الإنسان بالتشتت، وتصيبه بقلق ازدواج السلطة ذي النتائج السيئة على وجود الإنسان الباطني ونشاطه الحضاري على السواء.

---

(١) عماد الدين خليل: **تهافت العلمانية**. ١٢٥. وعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: **كواشف زيوف**. ١٧١.

٤ - وهي بإبعاد للقيم الروحية عن قوانينها وتنظيماتها، تقرر الفردية المطلقة لهذه القيم، وتغض النظر عن تلك التي تعد قاسماً مشتركاً للمجتمع الذي تسوده والتي يجب أن تحافظ على إيجابيتها بسبب من طابعها الجماعي (كالتكافل الاجتماعي)، والتعاونية والتضحية والإيثار والشعور بالمسؤولية، كما انها -بإغفالها هذا- تفتح المجال لحدوث تصادم بين هذه القيم -ذات الطابع الجماعي- وبين القيم المادية المفروضة من الخارج. من خلال تقويض القيم التي هي أصلاً «موروث اجتماعي وإنساني تُستمد من الأعراف والأديان المحتوية على الفضائل والمرشدة إلى القدوة الحسنة...؛ ولأنها قيم فهي التي يحتكم الناس بها ويحتكمون إليها، ولذا فهي قوة إظهار العادة والمألوف المرضي للجميع الذي يكوّن الناموس العام للشعب أو الأمة بكاملها»[(١)].

٥ - وهي عندما تجرد نظمها وقوانينها من كل القيم الروحية، والمرتكزات الباطنية، تسند تطبيقها للقوة والضبط الخارجي فحسب، وباستطاعة أي إنسان أن يخالف عن قوانين كهذه متى أحسب انه بمأمن من الرقابة الخارجية..

٦ - وبما أنّ هذه القوانين الوضعية لا تلائم تكوين الإنسان الذاتي القائم على التوازن الدقيق بين المادية والروحية تغدو عرضة للتمرد والعصيان، الأمر الذي يدفعها - دوماً- إلى إعادة صياغة نظمها وقوانينها من أجل ضمان الطاعة والتوافق. وخلال عمليات (إعادة الصياغة) هذه، يتبدد الكثير الكثير من الوقت والجهد والإمكانات..[(٢)].

فالتجسيد «هو قسر الإنسان على النظر الدائم إلى الأرض والمادة والاتجاه إلى عبادة المصرف والذهب والحضارة، إنه هيكل جديد من هياكل الوثنية..»[(٣)] وقد جرت على هذا الأساس «محاولات كثيرة للقول بالتعارض بين الروح والجسد، واستحالة التوفيق بينهما، والقول بأن الجسد هو سجن الروح. والواقع أن التعارض في المناهج لا في طبيعة

---

(١) عقيل حسين عقيل: **تقويض القيم (من التكميم إلى تفجُّر الثورات)**. ٩.

(٢) عماد الدين خليل: **قحافت العلمانية**. ٥٧ وما بعدها.

(٣) أنور الجندي: **سقوط العلمانية**. ١٧٠.

الإنسان، فالمناهج القائمة على التجزئة والانشطارية والتي تقول بأن الإنسان روح لا جسد شأنها شأن المناهج التي تقول بأن الإنسان جسد لا روح، كلاهما متجاوز لمنهج المعرفة الجامع الكامل»[1].

◈ بين الثابت والمتطور

إنّ الحقيقة التي لا غبار عليها في منهج المعرفة الإسلامي «أن الكيان البشري وحدة.. وحقيقة إن فيه جوانب ثابتة متطورة.. أو فيه -على الأصح- صور متغيرة وجوهر ثابت. ولكن عجيبة الإنسان الكبرى أن الثابت والمتطور فيه يكوّنان وحدة واحدة في النهاية،

---

(١) المصدر نفسه. ١٣١. ويبدو أن الرؤية المادية كانت ردة فعل على الرهبنة التي كانت فرضتها الكنيسة في تعاليمها، فوقع الأمر بين إفراط الكنيسة وتفريط التنويريين (العلمانية) !! انظر: محمد قطب: **الإنسان بين المادية والإسلام**. ١١ وما بعدها.

يقول الأديب توفيق الحكيم في كلام لطيف: "إذا أهدرت دينك أيها الإنسان فاعلم أنك أهدرت آدميتك، وإذا خلعت رداءك فقد خلعت رداءك البشري، وانقلبتَ دابة تسعى إلى رزقها في الأرض، ولا تقوى على التطلع إلى السماء !.. الدين هو الذي يرفع بصرك إلى أعلى أيها الإنسان !.. إلى أعلى من أقدامك وأرضك وطعامك وشرابك !.. وإذا استطعت أن ترفع بصرك أعلى من فمك فأنت أرقى من الحيوان !.. وإذا ارتفعت إلى حيث تدرك وجود "الله" فأنت سيد الكائنات !.." انظر: توفيق الحكيم: **تحت شمس الفكر**. ٤٠.

وهنا من المفيد أن نورد أيضاً مجموعة من المصطلحات التي استخدمها علم الاجتماع الغربي لوصف بعض الجوانب السلبية للحداثة والعلمنة الغربية، وكلها تفيد تهميش وتفكيك وتراجع وضمور وذبول وغياب الإنساني والأخلاقي لصالح ما هو إنساني ومحايد ومتشيء:

أ- (decentringman) أي إزاحة الإنسان عن المركز، بمعنى إفقاد مركزيته في الكون.

ب- (depersonalization) أي إسقاط السمات الشخصية.

ت- (desanctification) أي نزع القداسة عن الظواهر كافة ومنها الإنسان بحيث لا حرمة لها.

ث- (dehumanization) أي تجريد الإنسان من خصائصه الإنسانية.

وغيرها من المصطلحات التي تثبت المادية في الوجود كله. انظر: عبد الوهاب المسيري: **الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان**. ٢٠٩.

مترابطة متماسكة متحدة، لا يمكن فصل بعضها عن بعض. فالعقل البشري والنمو الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والنمو النفسي كذلك. كل شيء ينمو ويتطور. لكن الذي ينمو إنما يتطور وينمو وهو في داخل الإطار الكلي للإنسان. ولا يستقل بنفسه عن الكيان البشري، وإنما يأخذ حيّزه -مع تطوره الدائم- في داخل الكيان الثابت الذي يتكون منه الإنسان»[1]. «فالحركة داخل إطار ثابت وحول محول ثابت هي طابع الصنعة الإلهية في الكون كله لا في التصور الإسلامي وحده»[2].

«ومن هنا كانت محاولة العلمانية هدم منطق رسالات السماء لتصل إلى هدم الثوابت، وإلغاء قاعدة الثبات، ومنها تستطيع أن تصل إلى إلغاء الفردية الإنسانية، والأسرة، وإلغاء المنهج الجامع الذي يجمع الناس في وحدة فكر لدفع كل إنسان ليتخذ له أسلوباً ومنهجاً. وبذلك تتمزق وحدة الفكر الجامعة»[3].

هذا الاتجاه التطويري رأى في كل شيء قابلاً للتطور والتغيير وأخطر ما وصلت إليه مبدأ التطور المطلق -رغم انهم يقولون ان لا مطلق في الوجود- القول بنسبية الأخلاق، والقول بتطور الأخلاق تبعاً لعامل الزمن أو عامل المكان، واختلاف ظروف الحياة[4].

ومن ثم فلا يوجد كيان ثابت للإنسان!، فالإنسان هو حصيلة الظروف المادية والاقتصادية - كما تقول الماركسية- أو هو حصيلة انفعالاته الجنسية —كما تقول الفرويدية- وهكذا، وعلى هذا فالإنسان له كيان ثابت ما دامت هذه الأطوار دائمة التغيير وهو في تطور مستمر تبعاً لهذه التغيرات. والتطور لهذا يشمل كيانه كله: أخلاقه وعقائده وأفكاره وسلوكه الفردي والجماعي. وكل شيء فيه[5]. «ولقد فرّق الباحثون المسلمون بين

---

(١) محمد قطب: **التطور والثبات في حياة البشر**. دار الشروق، القاهرة، د.ط، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م. ١٧٧.

(٢) سيد قطب: **خصائص التصور الإسلامي**. ٨٦.

(٣) أنور الجندي: **سقوط العلمانية**. ١٦٧.

(٤) المصدر نفسه. ٨٩.

(٥) محمد قطب: **التطور والثبات في حياة البشر**. ٧٧. =

التطور والتطوير، وعارضوا القول بأنّ التطور معناه تفضيل الطور الأخير على الطور السابق له. فالتطور يشمل أي تغيير يحدث في أوضاع الجماعة، سواء في اتجاه تقدمي تصاعدي، أو في اتجاه عكسي تنازلي. أما التطوير فهو عكس ذلك، يختص أولاً بالتغيير التصاعدي الذي يهدف دائماً إلى طلب الكمال والحياة الأفضل..»[1].

◈ العلمانية تتبنى النظرية المادية

فمما سبق يظهر جلياً أن العلمانية (SECULARISIM) ماديةٌ في كل جوانبها ولا تعتمد إلا على المادية والظاهر والحسّيّ، ولا تعوّل بشكل من الأشكال على ما وراء المشهود والمحسوس (الغيب)[2].

على عكس المنهج الإسلامي الذي يقرر أن الإنسان «كائن لا هو بالملاك ولا بالحيوان. وإن كان قادراً في بعض حالات الهبوط أن يصبح أسوأ من الحيوان، وفي بعض حالات

= ومن هنا كان جديراً بنا أن نحدد تحيّزاتنا مع مثل هذا التفاوت الكبير في المنظومة الفكرية والحضارية الغربية التي تبغي العلمنة بديلاً عن أي فكر ثابت متزن، لا ننحاز إلى جوانب من الفكر الغربي العلماني الذي لا يثبت على حال، فعلى سبيل المثال: حينما ذهب المستعمرون البيض إلى إفريقيا عابوا على نساء إفريقيا العُري ورأوا فيه التخلف والرجعية؛ لأن الانسان الغربي وخصوصاً النساء، يرتدي ملابس في غاية التركيب ويغطي كل أجزاء جسمه، وكان يرى أن من واجبه الحضاري أن يُعلِّم الناس هناك كيف يرتدون الملابس (خاصة الغربية). ولكن من منتصف الستينات تغير النموذج المعرفي ولأسباب مجهولة!!! واختلفت الطريقة التي ينظر من خلالها الإنسان الغربي إلى الكون. وأصبح موقفه من الجسد مختلفاً، وانتقل من التحيز للملابس إلى التحيز ضدها، ولذا ترتدي النساء الآن الحد الأدنى من الملابس ويعتبرونها قمة في الاستنارة (عكس موقفهم من الإفريقيات سابقاً)، ومن يعترض سيتهم فوراً بضيق الأفق والجمود والرجعية، فمؤشرات التخلف والهمجية أصبحت مؤشرات على التقدم والمدنية، فلقد "تطورت" الدنيا!! و"تقدم" العالم!!. انظر: عبد الوهاب المسيري: **حوارات/الثقافة والمنهج**. تحرير: سوزان حرفي. دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م. ٣٠٩.

(١) أنور الجندي: **سقوط العلمانية**. ٨٧.

(٢) أنور الجندي: **مَعْلَمَة الإسلام**. المجموعة الأولى. ٦٦١.

الارتفاع أن يسمو بروحه إلى مستوى الملائكة من الطهر. ولكنه في حالته الطبيعية شيء بين هذا وذاك مشتمل على استعداد للخير كما هو مشتمل على استعداد للشر. وليس أي العنصرين غريباً عن طبيعته، ولا مفروضاً عليه من خارج نفسه. الإنسان في نظر الإسلام: جسم وعقل وروح. وكل أولئك معترف بوجوده، مقدرة مطالبه، وكلها حقيقة بالاستجابة إليها استجابة صريحة مباشرة لا مواربة فيها ولا إنكار»[1].

فكانت الظروف القاسية التي فرضتها الكنيسة والتي أدت إلى ظهور العلمنة بتصورها البعيد عن كل ما هو ديني أدت أيضاً إلى خلق تيار معادٍ للرهبنة بل لكل ما هو غيبي، فلا يرى إلا المحسوس فنتج عن ذلك معتقدات رهيبة منها الاعتقاد أن الموت نهاية ولا حياة بعد الموت وهذا من شأنه أن يقي تماماً على مسؤولية الانسان في الحياة والتزامه فيها[2].

فالمادية تحلل الانسان بما هو منظور محسوس، لكنها تغفل عن مسألة مهمة وهي أن هذه الرؤية تشكل ذوبان الجزء الإنساني في الكلّ المادي تفكيكاً للإنسان، لأن الإنسان بهذه الطريقة يُرَدُّ إلى ما دونه[3]. جاعلة من الإنسان شيئاً مختزلاً ضمن قوانين الطبيعة وحتمياتها بحيث ينشأ من ذلك ظاهرة التشيُّؤ (reification) والذي يعني فيما يعنيه «أن يتحول الإنسان إلى شيء، تتمركز أحلامه حول الأشياء ولا يتجاوز هو سطح المادي وعالم الأشياء، وتصبح العلاقات بين البشر مثل العلاقات بين الأشياء»[4].

---

(١) محمد قطب: **الإنسان بين المادية والإسلام**. ٦٩ وما بعدها. وهذا مقررٌ في القرآن الكريم ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ و﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ و﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ وغيرها من الآيات.

(٢) أنور الجندي: **مَعْلَمَة الإسلام**. المجموعة الأولى. ٦٧١.

(٣) عبد الوهاب المسيري: **العلمانية تحت المجهر**. ٤٤.

(٤) عبد الوهاب المسيري: **العلمانية تحت المجهر**. ٩٢. فبعد أن جعلت الحضارة الغربية الإنسان حيواناً تعمل على إشباعه، انحطت يوماً بعد يوم حتى ظهر ظاهرة التشيؤ التي تجعل الإنسان سلعة له قيمة السلع. انظر: محمد البهي: **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي**. ٣٠٩. وانظر: إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي: **مصطلحات عصر العولمة**. ٥٥. وفيه "**التشيّؤ** هي عملية تحوّل الصفات الإنسانية إلى أشياء جامدة واتخاذها لوجود مستقل واكتسابها لصفات غامضة غير إنسانية، وهي أفكار تشكل نقداً أخلاقياً قوياً للنظام الرأسمالي، يجعله نظاماً يحوّل البشر إلى أشياء يمكن أن تباع وتشترى مثل الزواج وغيره".

وبالتالي فإنّ الأشياء قابلة للتسلُّع والتبادل السلعي بحيث «أنّ السلعة وعملية تبادل السلع تصبح هي النموذج الكامن في رؤية الإنسان للكون ولذاته ولعلاقاته مع الآخر والمجتمع» مما يخلق ظاهرة غريبة تسمى التوثُّن والذي يعني «أن تصبح السلعة والشيء مركز الكون، والوثن الأعظم الذي يعبده الإنسان..) بحيث يتحوّل كل هذا إلى حالة من التنميط (uniformalisation) وهي ظاهرة في الحضارة الغربية وتعني «أنّ كثيراً من المنتجات الحضارية تصبح متشابهة ونمطية بسبب الإنتاج الصناعي السلعي الآلي الضخم- على عكس المنتجات الحضارية في المجتمع التقليدي، حيث نجد أنّ لكل شيء مصنوع شخصية مستقلة تستمدها من شخصية منتجها الذي صنعها بيديه»[1].

ويذهب علماء الاجتماع إلى «أنّ عمليات التنميط ليست مقصورة على عالم الأشياء البرّاني، وإنما امتدت لتشمل عالم الإنساني الجوّاني، بحيث تم تنميط أحلام الإنسان ورغباته وتطلعاته ورؤيته لنفسه وأنماط سلوكه..»[2] مما يخلق نموذجاً غريباً عن إنسانية والذي يرى «أنّ تحقيق ذاته إنما يكمن في حصوله على السلع، ويتم إشباع كل رغبات هذا الإنسان داخل مجال السلع هذا، حتى يصبح الإنسان أحادي البعد تماماً (متسلعاً متشيّئاً) مرتبطاً تماماً بسوق السلع، حدوده لا تتجاوز عالم السوق والسلع..»[3] مما ينتج منه

---

(١) عبد الوهاب المسيري: **العلمانية تحت المجهر**. ٩٣ وما بعدها.

وانظر: عبد الكافي، إسماعيل عبد الفتاح: **مصطلحات عصر العولمة**. ٦٦. وفيه تعريف التنميط: "لفظٌ يطلق على استغلال ثورة وشبكة الاتصالات العالمية الجبارة وهيكلها الاقتصادي الانتاجي بعماده المتمثل في شبكات نقل المعلومات والسلع وتحريك رؤوس الأموال ونقل مفهوم الديمقراطية لنشر الثقافة الأمريكية فقط والتوزيع الإجباري لأنماط الثقافة الأمريكية على العالم أجمع، وذلك من اجل التوحيد "unification" العالمي للثقافة والانتاج والاقتصاد والسياسة بالمفهوم الأمريكي".

(٢) عبد الوهاب المسيري: **العلمانية تحت المجهر**. ٩٤.

وانظر: عبد الوهاب المسيري: **الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان**. دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م. ١٠٥.

(٣) عبد الوهاب المسيري: **العلمانية تحت المجهر**. ٩٥ وما بعدها.

ما يسمى بـ(الإنسان ذي البعد الواحد) (one dimensional man) وهو البعد المادي الذي هو الأساس الذي بنيت عليه العلمانية[1].

وهذه المادية تنتج منها ظواهر لا مفرّ منها أهمها عمليات (الترشيد المادي) لتوجيه الجهود كلها لتثبيت عمليات التشيّؤ والتسلُّع والتنميط وغيرها، ويكون دور العقلانية في هذا المجال محصوراً في عقلانية الإجراءات والوسائل، وليست عقلانية الهدف! وبالتالي تمجيد السرعة؛ بصرف النظر عن طبيعة العمل الذي تؤديه بسرعة..[2].

◈ العلمانية ضد التكامل والتنوّع

«إنّ المنهج الإسلامي يؤمن إيماناً شديداً بالتقاء العناصر وتكامل القيم وترابط الأجزاء- ويرى في انشطارها أو انفصالها أو تمزُّقها نقصاً في النظرة المتكاملة، وعجزاً عن التمام وقصوراً عن الاكتمال.

إنّ العناصر في التقائها لا تحدث الصراع كما يتصور المنهج العلماني، وإنما تحدث التكامل، ولا يُحدث الصراع إلا التمزّق لا التقاء المتشابهات. فالدين والعلم والعقل والقلب والمادة والروح والدنيا والاخرة، كلها عناصر تتكامل بالتقائها ولا تتعارض. وإنما يظهر التمزّق والانفصام والانشطار في أعماق النفس الإنسانية نتيجة الوقوف عند عنصر واحد منها، وإعلائه واعتباره أساساً واحداً»[3].

---

(١) المصدر نفسه. ٩٩ و١٠٦ و١١٢.

(٢) عبد الوهاب المسيري: **العلمانية تحت المجهر**. ١١٢.

وانظر: إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي: **مصطلحات عصر العولمة**. ٣١. وفيه "إنسان ذو بعد واحد مصطلح من مصطلحات عصر العولمة، ويعني تنميط المستهلكين "أي فرض نمط استهلاكي معين عليهم"، وذلك بفرض سلع معيّنة عليهم في مختلف أنحاء العالم مما يسهم في إزالة هويتهم الوطنية والاجتماعية وزرع الهوية العالمية فيهم، عن طريق ثورة المعلومات والسموات المفتوحة".

(٣) أنور الجندي: **سقوط العلمانية**. ١٧٨. وأنور الجندي: **مَعْلَمَة الإسلام**. المجموعة الثانية ١٨٧.

يقول الأستاذ الجندي: "وفي مسيرة الإسلام، ظهر أثر التجزئة والانشطار والخروج على تكامل الإسلام حين استعلى الفكر المعتزلي العقلاني، وحين استعلى الفكر الصوفي الوجداني، وفي كِلَي=

وهذا يظهر جلياً حين اعتمدت الكنيسة على الرهبنة والروحانيات، فجاءتْ ردة الفعل في أقصى المقابل في المادية وما نشأ منها من مذاهب ورؤى باعتماد العلمنة في خطوة فكرية أو فلسفية، جاعلةً من المادة المعيار في توجيه الفكر فنتج عنها كل هذه الظواهر السابقة الذكر كالتشيؤ والتسلّع والتوثّن والتنميط وما صاحبها من تفكيك الإنسان وإخراجه في بعدٍ واحدي لا يرى منه غير المادي منه.

وبذلك فالعلمانية تعتمد الصراع بين المتقابلين، فمثلاً المرأة مقابل الرجل، تحاول منظمات حقوق المرأة الترويج لهذا الصراع الموهوم بين المرأة والرجل على أساس أنّ الرجل استطاع عبر أحقاب من التسلط إيجاد رمزية دالة على تحكمه في الأمور ومنها المرأة..، والعقل مقابل القلب في صراع دامٍ وهذا ما يؤكده الجانب الشعوري للفكر كالآداب والفنون حين تصف تلك الاداب في أشعارها ونثرها مآسي العقل الغربي وأزمته[1]،

=المرحلتين وقعت الأزمة التي لم يتحرر منها المجتمع الإسلامي والفكر الإسلامي إلا بالعودة إلى التكامل، فقد انحرف الاعتزال حين استعلى العقل وحده، وانحرف التصوف حين أعلى شأن القلب، والإسلام عقلٌ وروح، ولقد عرف أئمة الفكر الإسلامي خلال هذه الأزمات: "قانون التكامل" وجعلوه أساساً للفكر الإسلامي ونبراساً لتصحيح المفاهيم وميزاناً صادقاً لا يخطيء..". انظر: المصدر نفسه، ١٩١. وانظر: عماد الدين خليل: **مدخل إلى الحضارة الإسلامية**. ١٨٢.

(١) يقول د. عبد الوهاب المسيري: "من الطريف أنّ كثيراً من دعاة التحديث يتحدثون بحماس شديد عن الاستنارة والعلمانية، وكيف أنهما يؤديان إلى تحرير الإنسان وسعادته في العصر الحديث، وفي الوقت ذاته يتحدثون بإعجاب شديد عن الأدب الحداثي الذي يعبّر عن رؤية الإنسان الحديث لمجتمعه [نتاج فكر الإستنارة] ويبنون الضياع والخراب والاغتراب.. إلخ الذي يعاني منه الإنسان في العصر الحديث، ولا يربطون بين الواحد والآخر، أذكرُ أنني كنت أدرِّس فكر الاستنارة مع طلبتي في محاضرة الساعة التاسعة، وتحدثت بحماس شديد عنه، وكيف حرّر الإنسان الغربي وأدى إلى تقدمه، ولذا أخذت أبشِّر به، وفي محاضرة الساعة العاشرة كنت أدرّس معهم الأرض الخراب لإليوت وما حدث للإنسان في العصر الحديث من تفكيك وعقم، ففاجأتني المفارقة وبدأت في مراجعة كثير من أفكاري". انظر: عبد الوهاب المسيري: **العلمانية تحت المجهر**. ٣٩.

وهكذا لا تكاد العلمانية تواجه ثنائية إلا وتضع أسس الصراع شرطاً في التعامل معها وليس التكامل والتنوّع[1].

◈ العلمانية منتجٌ غربيّ بامتياز

وهنا نتساءل كما تساءل غيرنا «هل لهذا الجدل الفكري في الغرب، وما نشأ عنه من مذاهب فلسفية، اعتبار عام في كل المجتمعات الإنسانية الأخرى، بحيث تصلح مذاهبه أو يصلح بعض منها على الأقل؛ لأن يردد في بيئة أخرى وفي جماعة أخرى، تختلف كثيراً عن البيئة والجماعة التي ولد ونما فيها؟!. فهل نقل هذه المذاهب الفلسفية[2]، المؤيدة أو المعارضة للدين على السواء، إلى بيئة أخرى -كالبيئة الإسلامية مثلاً[3] - غير أوربية في الطابع، والاتجاه، والتقاليد، يعتبر ذا جدوى من الوجهة الفكرية؟!

وهل القارئ المسلم يستطيع عندئذٍ أن يسير بتفكيره ويتابع خطوات النقاش مع المؤيدين أو المعارضين، فيما ساقوه من آراء لترجيح كفة (الدين) أو ضد (الدين)؟!

وهل ستوجد هناك (انفصالية) ذهنية بين المنقول من هذا الجدل الفكري الأوروبي، وبين واقع الحياة التي نقل إليها، وهي الحياة الإسلامية؟

وهل المؤيد للدين هناك باسم هذه المذاهب المؤيدة، وكذا المعارض له هناك أيضاً باسم المذاهب المعارضة منها، يكون هنا في المجتمع الشرقي الإسلامي أكثر من (حاكٍ)

---

(١) عماد الدين خليل: **ثقافة العلمانية**. ٢٠٣. وانظر: سفر الحوالي: **العلمانية**. الصفحات ٤٥١ و٤٧٥ و٤٨٦ وما بعدها.

وعبد الوهاب المسيري: **العلمانية تحت المجهر**. ٣٩ و١١٧ وقد سمّى مثل هذه الظاهرة بالتفكيك.

وأنور الجندي: **مَعْلَمَة الإسلام**. المجموعة الثانية. ١٩٨. وقد سمّى هذه الظاهرة بالانشطارية وهي ليست بعيدة عن التفكيك!.

(٢) وبالتالي المصطلحات التي تعبر عنها والتي تعتبر مفاتيح لهذه المذاهب كالديمقراطية والشيوقراطية والليبرالية والمجتمع المدني والاشتراكية والحرية بالمفهوم الغربي وغيرها كثير.

(٣) أو حتى المجتمعات غير الإسلامية غير الغربية كالمجتمع الياباني أو المجتمع الصيني، الذين يحملان من السمات ما يفاصل بها عن المجتمع ذي الطابع الأوروبي!!

و(مردد) لشيء، يبعد كثيراً عن واقع الحياة التي يردد فيها ما ينقل ويحكي؟؟»[1].

فالعلمانية بضاعة فكرية مستوردة ضد أصالتنا وسيادتنا؛ «لأنه مبدأ مستورد من خارج أرضنا ومن قوم غير قومنا، لهم تاريخ غير تاريخنا، ومفاهيم غير مفاهيمنا، وعقائد غير عقيدتنا، وقوانين غير شريعتنا، وأوضاع غير أوضاعنا. إنهم احتاجوا إلى العلمانية لظروف خاصة بهم، ونحن لا حاجة لنا إلى العلمانية؛ لأنها كانت حلاً لمشكلهم مع كنيستهم، وهي عندنا، تكوّن مشكلاً في ذاتها»[2].

(١) محمد البهي: **الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي**. ٢٩٠ وما بعدها.

(٢) الشيخ يوسف القرضاوي: **الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه**. ٩٠.

يقول الأستاذ محمد قطب في كلام مهم: "وإذا كانت النهضة في مجموعها (ردفعل) للكبت الواقع على (الإنسان) بفعل التصور الكنسي للدين، والممارسة الكنسية له، وإذ كان الغالب على ردود الفعل هو الاندفاع لا التعقل ولا التبصر ولا الروية ولا الاتزان.. فقد اندفعت أوربا في نهضتها تنزع من طريقها كل مَعْلَم من المعالم الإلهية (سواء كانت إلهية حقاً أو مداعاة من قبل الكنيسة) وتصنع مكانها معالم بشرية من صنع الإنسان، كما تنزع من طريقها كل ما يتصل بالآخرة لتضع بدلاً منه ما يتصل بالحياة الدنيا.. وكانت هذه هي بداية (العلمانية) بالتعريف الأوروبي". انظر: محمد قطب: **مذاهب فكرية معاصرة**. ٤٥٨.